

ما بعد الفرق :

من جغرافيا أصولية إلى جغرافيات هجينة

Mei-Po Kwan *

ترجمة بتصريف

أ.د. مضر خليل عمر

لقد تطورت الجغرافيا في مجالات متنوعة وعديدة خلال القرن الماضي ، وفي الوقت الذي كان فيه هناك منظور فكري واضح ومداخل ومناحي نظرية متعددة تشكلت في أوقات مختلفة ، كان هناك مد وجزر في المناهج والأساليب الجديدة ، التي اتسمت بالحدية . واستجابة للرؤيا الجديدة للجغرافيا ، ما هي و ما يجب ان تكون عليه ، فقد زادت حدة الجدل الذي اتسم بالتشنج . وأثناء هذه العملية فقد تزايد تميز الجغرافيين كأفراد في الجغرافيا التقليدية أو التخصصات التي أدرك بأنها غير قادرة على المنافسة والثبات . والمجالات الجغرافية التي أدرك بعدم كفاءتها تم الانسحاب منها تدريجيا لتصبح من تاريخ الجغرافيا .

شهد القرن العشرين إنقسامين (على الأقل) في الجغرافيا ، فصل الأول بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية ، جراء فكرة عزل دراسة الطبيعة عن دراسة المجتمع . والثاني فصل المكاني - التحليل و الاجتماعي - الحضاري في محاولة لإيجاد وسيلة لفصل التحليل الجغرافي الذي يفرز الأنماط المكانية وعلاقتها عن العمليات الاجتماعية - الحضارية - السياسية . ونتيجة عملية الفصل هذه وما تبعها من نقد (من قبل منظري الماركسية ، والواقعية، والنسوية ، وما بعد البنيوية ، وغيرها من المذاهب الفكرية) ، فان الجغرافيات الاجتماعية - الحضارية و المكانية - التحليلية قد أضحت اكثر تماسكا و تناغما من قبل . وفي هذه العملية أصبحت الجغرافيا البشرية محددة بثنائية غريبة : (إما أو) و بمصطلحات غير جيدة . واصطف المنظرون الاجتماعيون وما بعد المعاصرة في صف ، يقابلهم المحللون المكانيون و الكميون و مستخدمو النظم الجغرافية في الصف الآخر .

وعلى الرغم من المحاولات العديدة لمناقشة النظرية الاجتماعية وفصلها عن التحليل المكاني في الجغرافيا ، وتصور بدائل ممكنة ، إلا أن الفاصل بينهما كما يبدو ما زال عميقا ، وباق بشكل يؤثر على الجغرافيا المعاصرة . يضاف إلى ذلك ، ويبدو ان هناك تضخيما عبر الزمن وتضييحا للفروقات ، رافقه غياب التحاور بين الجبهتين المعنيتين في الجغرافيا . وهناك

* AAG 94(4) , 2004 , pp. 756-763

انعكاسات واضحة حاليا عند بعض الجغرافيين ، تبرز بشكل اهتمامات متزايدة في دينامية الجغرافيا .

الانقسام : اجتماعي - حضاري و مكاني - تحليلي

في محاولات مكررة لعرض الجغرافيا كعلم واحد متماسك و جسم دراسي له احترامه وهويته في العلم و مجتمع العلوم الاجتماعية خلال القرن العشرين ، فقد هدف بعض الجغرافيين إلى توفير رؤى منفردة عن التخصص ، مع التركيز على مفهوم العلم وخصائصه. والشيء المهم هنا ، وضمن هذه العملية ، القول بان الأعمال الجغرافية السابقة ليس لها قيمة ، والإفصاح بوجود محاولات للوصول إلى الأحسن والأكثر تحديا ، و وجود طريقا واحدا للجغرافيا .
ففي المراحل الأولى من تشكيل الرؤيا الجديدة للجغرافيا ، وقعت أحداث عديدة ، فالمنظور عد غير متوافقا مع الرؤيا الجديدة ، لذا فانه غير مقبول ، أو ناقص أو غير نقي ، لأنه لم ينتج عن ممارسات جغرافية مقبولة . وقد تعززت الحدود الفاصلة بين المنظورين القديم والجديد بإصدار دوريات متخصصة عن مؤسسات مهنية ، التي بدورها ساهمت في تشكيل الهوية الفردية لجغرافيين .

ومن خلال عمليات الاستقطاب و ترسيم الحدود بين التخصصات لم تتشكل بدائل ، ومال الجغرافيون إلى الهويات ذات الصبغة السلسة وغير المتكاملة ، وبمنظور أحادي و التعريف بمفهوم إما أو لا . وكانت الخصائص المشتركة بين الفئات الجديدة ، في الغالب ، ابتسامة خفيفة .

ما بعد علم المعرفة

لعقود من الزمن كان هناك نضالا و محاولات جادة لتوحيد هوية الجغرافيا ، ولكن بمنظور و رؤية أحادية ، لذا لم تنجح هذه المحاولات بشكل كامل ، وبقيت الممارسات الجغرافية خليط غير متجانس و غير موحد الرؤية . والحقيقة ان ما جرى هو تغيير في المنظور الجغرافي و الممارسات عبر الزمن ، وقد عد هذا تطورا ، وأدى إلى تركيبة جغرافية معقدة . وان وصف الطرائق الأولى المعتمدة في الجغرافيا بأنها كمية والراهنة بأنها نوعية فيه شيء من المغالطة .
بعبارة أخرى ، فان علم الجغرافيا هو خليط من العلم ، والعلوم الاجتماعية ، و الإنسانيات ، وان هناك تنوعا كبيرا في كل مجال أو ميدان ، وليس هذا وليد اليوم ، بل عبر التاريخ .

وعوضا عن الإصرار على هوية موحدة لعلم الجغرافيا تشكلت علاقات منتجة بين مختلف التخصصات الدقيقة والميادين الثانوية . ويبدو ان هذه استراتيجية فاعلة لها جاذبيتها في مختلف فروع العلوم ، وفي المجتمع الأكاديمي ، وفي المصادر المالية ، وقد يؤدي هذا إلى تقوية مبادرات العلوم الأخرى لتحذو حذونا .

وعلى ضوء هذا ، فمن المناسب التساؤل عن سبب عدم تعزيز الجغرافيات الاجتماعية - الحضارية و المكانية - التحليلية لبعضها و دراسة مختلف إمكانات الربط بينها . وفي الواقع فان الطرائق العلمية عدت وسائل تؤدي إلى تغيرات اجتماعية ، نحو التقدم وليس أدوات إحباط . وجاء النقد النسوي ليؤكد قدرة التقنيات المعاصرة على تحرير الإنسان من كثير من انواع التسلط المفروض عليه . ويوحى هذا بان الخصائص البارزة (التقنية \ العلمية) للجغرافيا المكانية - التحليلية يجب ان لا تحول دون إمكانية تكاملها مع الجغرافيات الاجتماعية - الحضارية . ومع هذا فان الفروقات الجوهرية بينهما تحدد مدى تكاملهما .

إن العودة إلى العلاقات بين علم المعرفة والطرائق المستخدمة في الجغرافيا ضرورية و مهمة لإعادة الربط بين المعطيات التقليدية لكل من الاجتماعي - الحضاري و المكاني - التحليلي . فهناك العديد من المؤشرات والمعطيات المهمة والمهملة عن الثورة الكمية مبررها المعرفي قد جاء متأخرا بسنين بعد أن أخذت الطرائق الكمية مكانها في التطبيق . ويرى بارنز بان ديفد هارفي بتحوله إلى الفلسفة الواقعية ، وان التخصص الدقيق التاريخي يوحى بان التبرير المعرفي للجغرافيات المكانية - التحليلية نابع عن الرغبة في إيجاد نوع جديد من الممارسة الجغرافية ، وليس من الضروري ان تكون هناك صلة بالفلسفة الواقعية واستخدام الطرائق الكمية في البحوث الجغرافية . كذلك فان نظم المعلومات الجغرافية موجودة قبل ربطها كأساس علمي جغرافي جديد ، وان استخدامها لا يتطلب تبريرا معرفيا مسبقا . فالتقنية لا تحدد مستخدميها في أي جانب معرفي معين .

ان العلاقة بين معرفة معينة و نوع محدد من الطرائق البحثية ليست علاقة سببية ، لذا لا يمكن اشتقاق بان المعرفة الجغرافية أو السياسية تستند فقط على الطريقة المعتمدة . فقد يكون هناك استخدام لها في فلسفة أخرى غير الواقعية للتحليل الكمي و النظم الجغرافية . لذا من الواضح ان الاختيار بين النظرية الاجتماعية والتحليل المكاني غير حقيقي ، ولعلنا وقعنا في فخ التعارض بين الطريقة والمعرفة ، وان ذاكرتنا تركت لعقود مما أثر على القدرة على تصور الصلة بين الجغرافيات الاجتماعية - الحضارية و المكانية - التحليلية . يضاف إلى ذلك ، من المهم التمييز ان ما بعد الطبيعة للعقلانية المعرفية لا تميل إلى هذه المسوغات بالكامل . عوضا عن ذلك ، فان الانعكاسات النظامية للعقلانية التي تضمها ممارسة البحث يمكن ان تعتمد لتطويع مفردات جديدة و بدائل عقلانية تساعد لإعادة الصلة بين الاجتماعي - الحضاري و المكاني - التحليلي .

حدود المشاريع البحثية والجغرافيات الهجينة

ان مفهوم الهجين يساعد في التفكير لتجاوز الفصل بين الاجتماعي الحضاري و المكاني التحليلي في الجغرافيا . فالهجينية في الدراسات الحضارية تشير إلى القلق و الأداء

الذاتي المقاوم للتعريفات الفئوية الصارمة و الثابتة ، مثل الجنس ، العرق و القومية . وتستخدم أيضا لتجاوز البناء الثنائي الذي يفترض استقلالية الطبيعة عن الحضارة و العلم عن المجتمع أو الاقتصاد عن الحضارة وكاجواء غير متداخلة مع بعضها . والهجينيات هي موجودات بشرية وغير بشرية (مثل الأشياء ، المشاريع) التي تنتقل بين و تربط بين أقسام موجودة ، و الهجينية تعني الحركة الهادفة تكامل العناصر التي يعتقد بأنها غير متوافقة أو متعارضة . فالهجين ينتهك الحدود بين الثنائيات ويستبدلها وهو بذلك ينتج شيئا جديدا ، وحركة الهجين هذه تستسلم لبعض الحدود القوية لذا تبقى كما هي . و بالنسبة لكاتب المقال هي ممارسات جغرافية (أو مشاريع حدودية) تتحدى الحدود و تفرض صلة جديدة بين الجغرافيات الاجتماعية الحضارية و المكانية التحليلية.

وبعض الجغرافيين قد مارس شكلا من أشكال الجغرافيات الهجينة المشار إليها هنا . ان إدراك وجود هذه الممارسات يساعد في تجنب الميل للتفكير بان الممارسات الجغرافية نقية و ثنائية التقسيم وتديم الفجوة بين الاجتماعي الحضاري و المكاني التحليلي . واكثر الممارسات الهجينة شيوعا هي التي تعتمد الطرائق الكمية أو GIS و تناقش مسائل جغرافية حرجة . والنوع الآخر من الجغرافيات الهجينة تهدف إلى عبور الحدود بين التقنيات المكانية الجغرافية (GIS , GPS) و الاستيعاب الكمي لخبرة الأفراد الحياتية في مختلف البيئات الحضارية . وفي الغالب تخطت هذه الدراسات بين الطرائق لاستكشاف الحقائق المتعددة و القصص التي تشكلت عبر التفاعلات المعقدة بين المعرفة و السلطة و التغيرات الاجتماعية و السياسية . النوع الثالث من الجغرافيات الهجينة جاء كمحاولة لتكامل نظرية النقد الاجتماعي و طرائق التحليل المكانية . فمثلا ، أقوم بعمل يتطلب الربط بين نظرية ما بعد البنوية النسوية و استخدام الحاسب باعتماد النظم الجغرافية و طرائق العرض الجغرافية السائدة هذه الأعوام . فبحشي يشمل تنمية طرائق نظم المعلومات الجغرافية بقصد السيطرة على التعقيد في الخبرة المعاشة من قبل الأفراد أثناء قيامهم بالنشاطات والانتقال في حياتهم اليومية . فقد تنقلت بين GIS و نقد نظرية الاجتماعية وكل واحد منها له تأثيره و مكانه في عملي هذا . وهذا الانتقال جعل تطوير النظرية النسوية لغرض نظم المعلومات الجغرافية و الممارسة النقدية لها ممكنا .

وبالإضافة إلى تمييز الجغرافيات الهجينة الموجودة ، فان الهجينية يمكن مساومتها كموقع (أو موضعيا) بين جغرافيات الاجتماعية الحضارية و المكانية التحليلية تقديرا للموجودات الثنائية المصاحبة لهما . فالموجودات السائلة تسمح وتسهل عملية إيجاد صلات منتجة بين هذين النوعين من الجغرافيات التقليدية . إضافة إلى ذلك ، من المهم تطوير بدائل مفردات و استعارات تسهل الانتقال بين الثنائية النقية و تسمح بإمكانية ان يكون الجغرافي منظرا اجتماعيا

و محلا مكانيا في الوقت نفسه (مثل : نظم معلومات جغرافية نقدية ، أو تحليل مكاني نقدي) .

مستقبل ما بعد النظرية الاجتماعية وما بعد التحليل المكاني

ولللخروج بنتيجة ، اقدم بعض الأفكار عن مستقبل الجغرافيا في "ما بعد النظرية الاجتماعية" و " ما بعد التحليل المكاني" . ويعني هذا ان مستقبل الجغرافيات الاجتماعية الحضارية و الجغرافيات المكانية التحليلية لا يمثل كأقطاب متعارضة أو ثنائية لا تقبل التوحد، مستقبل لا يخاف التقسيم غير الضروري أو التجسيم كما في "ما بعد الحداثة" و "جغرافيو نظم المعلومات الجغرافية" . ان التحدي الرئيس للجغرافيا كعلم هو تعزيز التنوع و الغنى في المنظور والمنحى وفي الوقت نفسه ، الحفاظ على الوحدة أمام المجتمع الأكاديمي والمجتمع الأكبر . ان استحداث كيانات محترمة في الجغرافيا استنادا إلى رؤية فردية هو مشروع لا يمكن الدفاع عنه . فنحن بحاجة إلى إيجاد سبل تجعل الجغرافيا علما محترما و نعزز الحالة بدون إلغاء الفروقات داخل علم الجغرافيا . نحن بحاجة إلى قبول المناحي المختلفة غير المتوافقة و نسمح لها للدخول في حوار بناء في الوقت نفسه . علينا ان نركز على استيعاب الفروقات و تحديد الصلات البناءة معها واستكشاف الكيفية التي يمكن ان تغني بعضها البعض بدلا من النظر إليها كمناحي معارضة. ولعل تجاوز الانقسام الحقيقي و المتصور في مخيلتنا هو المهمة الأصعب لمستقبل الجغرافيا .

ومن المصادر المهمة للنظرة الثاقبة ، الأعمال التي أنجزها منظرو النسوية و الجغرافيون . والموضوع الرئيس للجغرافيا النسوية هو الكتابة والتحدث عبر الحضارات و المجالات و المواقع الاجتماعية . فهذه الكتابات قد عززت استيعابنا للتفاوض ما بين الموجودات و الاختلافات عبر الحدود الاجتماعية والجغرافية . ومن خلال البحث في موضوعات مثل تحول الموجودات و الحضارات الهجينة فان الجغرافيا النسوية توفر رؤية ثاقبة عن مسائل معقدة تشمل التحدث عبر الانقسامات المتنوعة التي لها صلة حميمة بمستقبل الجغرافيا .

ومن المهم مناقشة التطور الدينامي للجغرافيا الأمريكية . ولعل المصدر الرئيس للمشكلة راجع إلى نموذج توماس كون Thomas Kuhn عن الثورة العلمية وأثره على تخصصنا . ولما كان نموذج كون اعتمد لإدراك ان التغييرات في التخصص ناتجة عن تتابع في المنظور وكل واحد يفوق الآخر ، ولتخصيص وقفة واضحة مع الممارسات الراهنة و سيادة رؤية أحادية ، فان الاختلاف والتنوع في المنظور ليس له دور في تفسير هذا النموذج . إضافة إلى ذلك ، فان عمل كون يميل إلى تكثيف الخصومة داخل الجغرافيا لأنه يرى ان الحالة الطبيعية للجغرافيا البشرية تشمل منظورا واحدا ينتصر على غيره ، وان هناك خلافا عند مقاومة

وجهاً النظر غير المتكافئة . لذا من المهم ملاحظة ان نموذج كون (كما استخدم) غير مناسب للجغرافيا لانها تحتوي مناحي و مناهج عدة و تشترك فيها في الوقت نفسه . عوضاً عن ذلك ، فان التطور المستند على شبكة عمل موضوعية thematic network قد توفر هيكلأ افضل لتطوير الجغرافيا في المستقبل . فالشبكة الموضوعية تقطع عبر مناحي عدة و تخصصات أو ميادين ثانوية تستند على الموضوع العام . إنها تشجع التعاون عبر مختلف الاهتمامات ويمكن ان تكون مرنة في تمييز الاستجابات للتغيرات الخارجية (مثل التغيرات الاجتماعية أو الفرص المعززة مادياً) . ومن خلال جمع الناس مع بعض من ذوي المناحي المختلفة أو حتى المتعارضة فان التطور يستند على الشبكة الموضوعية قد يوفر هيكلأ افضل في تحسين الاتجاه الاستقطابي في التخصص .

ان الطريقة التي يجري فيها الحوار لها تأثيرها الكبير على مستقبل الجغرافيا . فالكيفية التي يتم بها تبني التضامن ضمن الجغرافيا بعيداً عن الاختلافات والتنوع أمر جوهري . ففكرة التحمل العالمي cosmopolitan tolerance و التضامن المميز differentiated solidarity ذات صلة خاصة . الفكرة الأولى قدمها Denis Cosgrove كانعكاس عن علم النهضة ، بينما الفكرة الثانية جاء بها Iris Young كفكرة معيارية لتجاوز مشكلة العزل السكني . وكلا المفهومين يركزان على الحاجة إلى الإبقاء على الاختلافات و ضمان الحرية الفردية والسماح بوجود المسافات بين المجاميع ، في حين الحفاظ على المجموع من خلال تحمل والاحترام الناضج المستند أولويات واسعة وليس فقط مصالح محلية . وإذا أمكن وضع مثل هذه الأفكار قيد التنفيذ فان مستقبل الجغرافيا سيختلف بدرجة كبيرة عن ماضيها .

وأخيراً ، ما هو حرج انتشار الهجينيات ، أو الجغرافيات و الجغرافيون من النوع الثالث ، أولئك الذين يقطعون عبر الفروقات بين الاجتماعي الحضاري و المكاني التحليلي و الكمي و النوعي ، و الحاسم والتقني وبين الاجتماعي العلمي و الأدبي و الإنسانية . انه مستقبل الجغرافيا وليس أحد فروعها .